محمد شكري...

صعلوك الأدب الحديث

الصعلوك متوجًّا

□ فريال جبوري غزول

«إذا مات إنسان وفي رأسه أحلامٌ جميلةٌ، فإنّ موتَه سعيد.»

محمد شكري

رحيلٌ مكرَّمٌ

عندما رَحَلَ محمد شكري عن عالمنا منذ فترة قصيرة، رَحَلَ لا كما عاش ـ صعلوكًا ومهمَّشًا، أعمالُه ممنوعةٌ، وقرائتُه جنحةٌ، ومَنْ يقرِّره على الطلبة يُصْبح بدوره مدانًا. بل رحل عزيزًا مكرَّمًا، مع تقدير من أعلى الجهات الرسمية في وطنه المغرب، وبصحبةِ أعزِّ أصدقائه، يمازحهم ويهوِّن من شأن مرضه - كما حكى لي تفاصيلَ ذلك صديقُه عبد الحميد عقّار. فعندما كان شكري في المستشفى العسكريّ في الرباط، جاء لزيارته صديقُه الشاعر وزيرُ الثقافة محمد الأشعري، فقال له شكري. «أخوك عنده ثلاثةُ أورام خبيثة: سرطان في الرئة، وسرطان في الكبد، وسرطان في البروستات، لكنَّه متفائل.» فحيّاه الأشعري قائلاً إنَّه مثلُ الجبل. وكان شكري يقول لأصدقائه إنَّه لا يخشى الموت، ولكنَّه يريد الحياة كي يُكْمل مشوارَه الأدبيّ، إذ كان هاجسُ الكتابة والإبداع ملازمًا له منذ أن اكتشف القراءةَ في السجن وهو في سنّ العشرين. وكان آخرَ ما طلبه من أصدقائه فاكهةٌ مغربيةٌ حُلوةُ المذاق تُعْرف بالكاكي، فأكلها باستمتاع، فأدرك أصحابُه أنّ هذه صحوةُ ما قبلَ الموت. وهكذا كانت.

وعندما كنتُ مؤخَّرًا في مطار الدار البيضاء وجدتُ كتبَه معروضةً للبيع، وقد أعيد طبعُ عمله الأدبيّ الأشهر **الخبز الحافي** أربعَ مرات في السنوات الأربع الأخيرة في المغرب. كما أنّ لجنةً قد تشكلتْ من الأشعري وعقّار ومحمد برادة وحسن نجمي وحسن أوريد لتُشْرف على مؤسسةٍ مخصَّصةٍ لمحمد شكري في طنجة، ودورُها: الحفاظُ على تراثه، وإعادةُ نشرِ ما نفد من أعماله، وطبعُ مخطوطاته، وإقامةُ معرضٍ دائمٍ لآثاره وصوره، وجمعُ الدراسات عنه، لتكون متاحةً للدارسين والطلبة. وقد تبنَّت اليونسكو مشروع فيلمٍ عن شكري في إطار مقاومةِ الأمية ومحوِها، وتقوم بإخراجه شركةٌ إيطاليةٌ تحت إشرافِ مخرجٍ جزائريّ.

وهكذا سيكون لهذا المتسكّع في الدروب مقرٌ مخصَّصٌ له، بعد أن كان يقول لمعارفه الذين يبحثون عنه أن يذهبوا أولاً إلى شقته في طنجة، فإنْ لم يجدوه هناك فليذهبوا إلى مطعم وحانة «ريتز،» فإنْ لم يجدوه فليذهبوا إلى مقبرة طنجة على ساحل البحر الذي طالما أحبّه وطلب أن يُدفن بجواره... بل كان شكري هو القرينَ الإنسانيَّ للبحر. شاسعًا وعميقًا، يثور مثلَه أحيانًا ويشفّ مثلَه أحيانًا أخرى. وفي عنفه وهدوئه كان أخّاذًا كالطبيعة في عصفها واستكانتها، يُبْدع بفطرته، متمثِّلاً الحياةَ من خلال تجاربه وقراءاته وصحبته لكبار الأدباء.

البوح والرقابة

فتح شكري بابَ البوح على مصراعيه في الأدب العربيّ، إلاّ أنَّه ظلّ متفردًا في هذا المضمار، إذ بقيتْ السِّيَرُ الذاتيةُ الروائيةُ التي كُتبتْ بعد **الخبز الحافي** أو قبلَه في حدود المقبول اجتماعيًا... وإنْ كان هناك تيارٌ في المغرب يقترب في نهجه من كتابة شكري الجريئة لكنَّه لا يصل إلى ذروتها، مثل روايتَي كمال الخمليشي **الواحة والسراب** و**حارث النسيان**. ومن ثمّ نطالب الهيئات الرقابيةَ الرسميةَ العربية بالإفراج عن أعمال شكري، من أجل قيمتها الأدبية واحترامًا لحرية الرأي والتعبير. وإذا لم تبالِ هذه الهيئاتُ بمسألتي الحرية والقيمة الأدبية ـ كعهدنا بها ـ فعليها على الأقلّ أن تأخذ بنظر الاعتبار ما قاله ملكُ المغرب محمد السادس عنه في برقية التعزية وذَكَرَ فيها تقديرَه لأدب شكري لجرأته وتميزه. ولا نشكّ في أنّ كلمة السلطان ستُقْنع الرقيبَ أكثرَ من كلمات النقّاد مجتمعةً!

في مقاومة الموت

كانت حياةُ شكري منذ طفولته في الريف ونزوحه إلى المدينة صراعًا مع الموت. عرف الجوعَ، وعركَ القهرَ، واستخدم كلَّ السبل ليحيا. وعندما تعلَّم القراءةَ اكتشف حياةً أخرى تتجاوز البقاءَ البيولوجيَّ، وعَكَفَ على تحويل حياته إلى نصوص فنية؛ فثلاثيتُه **الخبز الحافي** و**الشطّار** (أو **زمن الأخطاء**) و**وجوه** تشكّل سيرةً أدبيةً لتجربةٍ إنسانيةٍ فذّة

كان شكري، يَرْفض الموت: يقاومه وهو طفلٌ بائسٌ، ويراوغه وهو كهلٌ مريض، وأحيانًا يرفض أن ينصاع لحقيقته. كَتَبَ لي في إحدى رسائله: «أمي ماتت منذ ثلاث سنوات، ومنذ

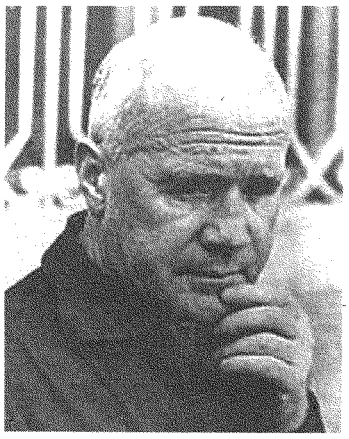

«صديقي جان جينيه مات. زرتُ قبره... ربوة تراب، حَجَرَان
أهذا ما يَبْقى من الإنسان؟»

سنة ونيف استيقظتُ صباحًا باكرًا قَصْدَ زيارتها في تطوان. وبينما كنتُ أنتظر تجمُّعَ الركّاب للسفر، تذكرتُ عندئذ أنَّها ماتت. صديقي جان جينيه مات منذ أكثر من سنة. زرتُ قبرَه في العرائش. ربوة تراب، حَجَران واحدٌ يشير إلى رأسه، والآخر إلى قدميه. رأسٌ وقدمان. أهذا ما يبقى من الإنسان؟» (من رسالة شخصية بتاريخ ١٧/٥/١٩٨٧).

اللاأخلاقيّ والأخلاقيّ

يلتقط شكري في أعماله لحظاتٍ ومشاهدَ صريحةً في تفاصيلها الحميمة والجنسية، إلاّ أنَّه يبقى في كتاباته بريئًا كالأطفال الذين لا يَعْرفون ما هي الخطيئة وما هو الإثم. وهذا الأمر عجيبٌ وغريبٌ في مجتمعٍ أحدُ أركانِه الشعورُ المُزمنُ بالعَيْب، إنْ لم يكن بالذنْب. وهو يَعْزو ذلك إلى حسن الحظّ الذي جعله يتربّى في الشارع خارج نطاق سلطة الأسرة، حيث «كلُّ ما هو لذيذٌ مباح» ـ وعلى حَدّ قول شكري: هذه فلسفةُ مَنْ لا جذورَ له. وهو يفسّر كيف يقدِّم في **الخبز الحافي** ما هو لاأخلاقيّ كي يكشف عن الأخلاقيّ: فشخصياتُه لا تمارس الانحلالَ ابتهاجًا وإنما «تحت قهرٍ اجتماعيٍّ مزرٍ.» (من مقابلة مع شكري في مجلة **ألف** ٦/١٩٨٦).

إنّ بطل **الخبز الحافي**، أو على الأصحّ اللابطل في هذا العمل، شخصيةٌ بسيطةٌ وساذجةٌ على الرغم من ارتكابها لمجموعة من الممنوعات. فهو يسمّي العضوَ الجنسيَّ عند المرأة «جرحًا،» لأنَّه في طفوليّة إدراكه يَرْبط بين الطمثِ والدورةِ الشهريةِ عند المرأة وعضوها. كما أنّ توصيفَه للعنف يَفْتقر إلى أية إدانة لأنّ وجوده ـ من منطلق إنسانٍ مسحوقٍ ـ أقربُ ما يكون إلى وجودِ مخلوقٍ في غابةٍ: البقاءُ فيها للأشرس. وهكذا نجد شكري الصغير منكبًا على الزبالة في الشوارع يلتهم السمكَ الميت. ففي هذا العالم المتوحش، عالمِ طنجةَ وتطوانَ الباطنيِّ، ليس هناك سوى ثلاثِ طرقٍ للبقاء حيًا: السرقة أو التهريب أو بيعِ الجسد؛ وقد مارسها كلَّها شكري الشابّ، وإنْ كان يحسّ أحيانًا بنوع من التقزز مما يفعل. وحتى أسلوبُه وصياغتُه وصورُه في هذا العمل تَنْبع من مجرى حياته المهدورة ومرجعيته المحدودة. وتصويرُه لمشاهد مثل طعنِ متشرّدٍ بسكين، أو قضاءِ ليلةٍ مع عاهرة.. تبدو كأنَّها تنويعاتٌ على مشهد عاديّ ويوميّ ومألوف. ولا يصحّ اعتبارُ هذا العمل نصًا إباحيًا إلاّ لقارئ يتلصص باحثًا عن مشاهد جنسية، إذ إنّ العبرة في كلّ عمل هي في بنيته وخاتمته. فهذه السيرة ـ الرواية تتشكّل من خلال التلاعب بظلالِ دلالاتٍ متشابكةٍ ومتناقضةٍ لفعل «حَرَمَ» الذي يدلّ على معنى الحرمان من جهة والتحريم من جهة أخرى، ومنه تعبيرا «الحريم» و«الاحترام.» ويبدو العملُ وكأنَّه يَرْبط بين المعاناة والحرمان اللذيْن يؤدّيان إلى الحرام والبؤس. كما يَكْمن البعد الجماليّ في شبكةٍ من الإشارات والأحداث التي تَنْدرج في ثنائية الموت والحياة. فلقد فقد شكري ثمانيةً من إخوانه عند بلوغه العشرين؛ إذ تُفتتح الروايةُ بموت عبد القادر الأخ من سوء التغذية والجوع ومعاملةِ الأب القاسية، وتنتهي ببحث عبثيٍّ عن قبر عبد القادر الذي لم يَعْثر عليه، إذ لم يكن بإمكان العائلة أن تشتري شاهدًا يدلّ عليه. فعبد القادر، إذن، ليس الإنسانَ المسحوقَ الذي لا يستطيع أن يعبِّر عن نفسه وأن يشتكي فحسب، وإنما هو أيضًا مَنْ لا يَتْرك أثرًا يدلّ عليه: فقد حُرِم من الحياة، كما حُرِم من الموت الكريم. وقد عاش شكري ليحكي حكايةَ أخيه وغيرِه من الأشقياء، وليحكي كيف أنّ اكتشافه هو للأدب قد جعل منه إنسانًا يَخْرج من دائرة العذاب والسلبيات. فالقراءة الأدبية، وتحديدًا شعرُ أبي القاسم الشابي، هذّبتْ هذا الصعلوكَ المتشردَ وجعلتْ منه فنانًا وقاصًا. أفليس في هذا أيضًا عبرةٌ لمن يَعْتبر في أهمية الأدب في تشذيب النفس وصقلِ الذات وإرساءِ معايير إنسانية مختلفة عن الفساد السائد؟

وأخيرًا نودّع محمد شكري صاحبَ **وجوه**، والذي غَيَّر مسيرتَه بيت شعر، بأبياتٍ من شعر محمود درويش: «ليس لي وجهٌ على هذا الفراق / الشظايا جسدي / والمسافاتُ عناق / آه/ لو يبتعد الموتى عن الموتِ قليلا/ لأراهم في تفاصيلِ الأمل.»

القاهرة

فريال جبوري غزول
ناقدة أدبية عراقية ـ أستاذة الأدب الإنكليزيّ والمقارن في الجامعة الأميركية بالقاهرة